على مائدة العقيدة
١١

العبادة

حدها ومفهومها

جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحیم

العباده حدها و مفهومها

كاتب:

جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

العباده حدها و مفهومها

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ –

عنوان و نام پدیدآور : العباده حدها و مفهومها/ جعفر السبحانی.

مشخصات نشر : قم: مشعر، ۱۴۱۶ق.=۱۳۷۴.

مشخصات ظاهری : ۶۴ص.

فروست : علی مائده العقیده؛ ۱۱.

یادداشت : عربی.

یادداشت : کتابنامه به صورت زیرنویس.

موضوع : عبادت (اسلام)

موضوع : عبادات

رده بندی کنگره : BP۱۸۵/۱/س۲ع۲ ۱۳۷۴

شماره کتابشناسی ملی : ۲۹۳۵۶۰۱

ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ۳

المقدمه

ص: ۴

قال اللّه تبارک وتعالی:

«إِيَّاکَ نَعْبُدُ وَإِيَّاکَ نَسْتَعِينَ»

ص: ۵

بسم اللّه الرحمن الرحیم

وبه وحده نستعین وعلیه وحده نتوکل

والحمد للّهربّ العالمین، والصَّلاهٔ والسلام علی سید رُسُله، وخاتم أنبیائه وآله ومن سار علی خطاهم وتبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

یهتم المسلمون اهتماماً کبیراً بالعقیدهٔ الصحیحهٔ لأنّها تشکّل حجر الزاویهٔ فی سلوکهم ومناراً یضیءُ دروبهم وزاداً لمعادهم.

ولهذا کرّسَ رسُولُ اللّه صلی الله علیه و آله و سلم فی الفترهٔ المکیّهٔ من حیاته الرسالیهٔ نفسه لإرساء أُسس التوحید الخالص، ومکافحهٔ الشرک والوثنیهٔ، ثم بنی علیها فی الفترهٔ المدنیهٔ صَرحَ النظامِ الأخلاقی والاجتماعی والاقتصادی والسیاسیّ.

ولهـذا- ونظراً للحاجهِ المتزایدهٔ- رأینا أن نقدّم للأُمهِٔ الإسـلامیّهٔ الکریمهٔ دراسات عقائدیهٔ عابرهٔ مسـتمدَّهٍٔ من کتاب اللَّهِ العزیز، والسُّنّهِٔ الشریفهٔ الصحیحهٔ، والعقل السلیم، وما اتَّفق علیه علماءُ الأُمهِٔ الکرام، واللَّه الموفِّق.

معاونیّهٔ التعلیم والبحوث الإسلامیّهٔ

ص: ۶

ص: ۷

بسم اللَّه الرحمن الرحیم

تقدیم

العبادة من الموضوعات التی تطرق إلیها الذکر الحکیم کثیراً. وقد حثَّ علیها فی أکثر من سورةٍ وآیة وخصَّها باللَّه سبحانه وقال: «وقَضی ربُّکَ ألّا تَعبُدوا إلّاإیّاهُ وبِالوالِدَینِ إحساناً» (الإسراء/ ۲۳) ونهی عن عبادة غیره من الأنداد المزعومة والطواغیت والشیاطین، وجعلها الأصل الأصیل بین الشرائع السماویة وقال: «یا أهلَ الکِتابِ تَعالَوْا إلی کَلِمةٍ سَواءٍ بَینَنا وبَینَکمْ ألّا نَعْبدَ إلّاإیّاهُ ولا نُشرِکَ بِهِ شَیئاً ولا یَتَّخذَ بَعضُنا بَعضاً أرباباً مِنْ دُونَ اللَّهِ» (آل عمران/ ۶۴) کما جعلها الرسالة المشترکة بین الرسل فقال سبحانه: «ولَقدْ بَعثنا فی کُلِّ امَّةٍ رَسولًا أنِ اعبدُوا اللَّهَ واجْتنِبوا الطّاغوتَ فمِنهُمْ مَنْ هَدَی اللَّهُ ومِنهمْ مَنْ حَقَّتْ عَلیهِ الضَّلالةُ» (النحل/ ۳۶).

فإذا کان لهذا الموضوع تلک العنایة الکبیرة فجدیر

ص: ۸

بالباحث المسلم أن یتناولها بالبحث والتحقیق العلمی، حتی یتمیّز هذا الموضوع عن غیره تمیزاً منطقیاً.

والـذی یُضـفی علی الدراسـهٔ، أهمیـهٔ أکثر، هو أنّ التوحیـد فی العبادهٔ أحـد مراتب التوحید التی لا محیص للمسـلم من تعلّمه، ثم عقد القلب علیه، والتحرر عن أیّ لوم من الوان الشرک. فلا تُنال تلک الامنیهُ فی مجالی العقیدهٔ والعمل إلّابمعرفهٔ الموضوع معرفهٔ صحیحهٔ، مدعمهٔ بالدلیل حتی لا یقع فی مغبَّهٔ الشرک، وعبادهٔ غیره سبحانه.

ورغم المکانـهٔ الرفیعـهٔ للموضوع لم نعثر علی بحث جامع حول مفهوم العبادهٔ یتکفّل بیان مفهومها، وحـدّها الـذی یُفصـله عن التکریم والتعظیم أو الخضوع والتذلل، وکأنَّ السلف (رضوان اللَّه علیهم) تلقّوها مفهوماً واضحاً، واکتفوا فیها بما توحی إلیهم فطرتُهم.

ولو صحّ ذلک فإنّما یصح فی الأزمنهٔ السالفهٔ، دون الیوم الذی اسـتفحل عند بعض الناسِ أمر ادّعاء الشـرک فی العبادهٔ، فیما درج علیه المسلمون منذ قرون إلی أن ینتهی إلی عصر التابعین والصحابهٔ فأصبح- بادعائهم- کل تعظیم

ص: ۹

وتكريم للنبيّ، عبادة له، وكلّ خضوع أمام الرسول شرك، فلا يلتفت الزائر يميناً وشمالًا فى المسجد الحرام والمسجد النبوى إلّاوتوقر سمعه كلمةُ «هذا شرك يا حاج»، وكأنّه ليس لديهم إلّاتلك اللفظة، أو لا يستطيعون تكريم ضيوف الرحمن إلّابذلك.

فاللازم على هؤلاء- الذين يعدون مظاهر الحبّ والودّ، والتكريم والتعظيم شركاً وعبادة- وضعَ حدٍّ منطقيّ للعبادة، يُميَّز بها، مصاديقُها عن غيرها حتى يتّخذه الوافدون من أقاص العالم وأدانيه، ضابطة كلّية فى المشاهد والمواقف، ولكن- وللأسف- لا تجد بحثاً حول مفهوم العبادة وتبيينها فى كتبهم ونشرياتهم ودورياتهم.

فلأجل ذلك قمنا فى هذه الرسالة، بمعالجة هذا الموضوع، بشرح مفهومها لغة وقرآناً، حيث بيّنا أنّ حقيقة الشرك فى تعاليم الأنبياء أخصّ ممّا ورد فى المعاجم وكتب اللّغة.

جعفر السبحانى

تحريراً فى ۲۵/ ۲/ ۱۴۱۶ ه

ص: ۱۰

تخصيص العبادة والاستعانة باللّه سبحانه

إنّ المسلم في شرق الأرض وغربها، يخصّ العبادة والاستعانة باللَّه سبحانه في كلّ يوم في صلواته الخمس فيقول: «إِيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعِينُ» ولا خلاف بين المسلمين في هذه الضابطة الكلّية، أي أنّ العبادة مختصّة باللَّه سبحانه، ولا يصحّ إصدار هوية إسلامية لشخص إلّابعد الاعتراف بهذه الكُبرى، وإنّما الخلاف بينهم في بعض الأُمور والأحوال الخارجية، فهل هي عبادة أو لا؟ فلو صحّت كونها عبادة فلا يجوز الإتيان بها لغيره سبحانه وإن أتى بها لغيره يُعدّ مشركاً.

مثلًا تقبيل الأضرحة هل هو عبادة لصاحب القبر أو تكريم وتعظيم له؟ وهكذا الصلاة في المشاهد وعند قبور الأنبياء، فهل هي عبادة لصاحب القبر (وإن كانت الصلاة

ص: ۱۱

للّه) أو هی عبادة للّهولکن تتضمّن التبرّک بصاحب القبر؟

ومثل ذلک مسألة الاستعانة فی نفس الآیة، فمع الاعتراف بحصر الاستعانة باللّه سبحانه، فلا شکّ عند العقلاء عامة أنّه تجوز الاستعانة بالأحیاء فی الأُمور الدنیویة، ولکن إذا استعان بإنسان حیّ فیما یرجع إلی الأُمور الغیبیة، کردّ ضالته وبرء مرضه فهل هو استعانة تخالف الحصر المذکور فی الآیة أو لا؟

وهناک صورة ثالثة أبهم من الصورة الثانیة وهی: إذا استعان بمیّت بنحو من الأنحاء کما إذا طلب منه الدعاء والاستغفار فی حقّه فهل هی استعانة تخالف الحصر أو لا؟ وقس علی ذلک بعض ما یرد علیک من الصور المردّدة بین العبادة والتکریم، أو بین الاستعانة الجائزة والمحرّمة.

ولأجل أن یکون البحث أکثر علمیة وموضوعیة علینا أولًا البحث فی مسألتین:

۱- تحدید مفهوم العبادة حتی تتمیّز عن التکریم والتبجیل والتبرّک. ۲- تحدید الاستعانة المختصة باللّه وفصلها عن الاستعانة الجائزة.

کل ذلک فی ضوء القرآن الکریم.

ص: ۱۲

المسألة الاولى:

مفهوم العبادة وحدّها

اشارة

بالرغم من عناية اللغويين والمفسّرين بتفسير لفظ العبادة وتبيينها، لكن لا تجد فى كلماتهم ما يشفى الغليل، وذلك لأنّهم فسّروه بأعمّ المعانى وأوسعها وليس مرادفاً للعبادة طرداً وعكساً.

۱- قال الراغب فى المفردات: «العبودية: إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها، لأنّها غاية التذلّل، ولا يستحقّ إلّا من له غاية الإفضال وهو اللّه تعالى ولهذا قال: «وقَضى ربُّكَ ألَّا تَعبُدوا إلّاإيّاهُ ...»».

۲- قال ابن منظور فى لسان العرب: «أصل العبودية:

الخضوع والتذلل».

۳- قال الفيروز آبادى فى القاموس المحيط: «العبادة:

ص: ۱۳

الطاعة».

۴- قال ابن فارس فی المقاییس: «العبد: الذی هو أصل العبادة، له أصلان متضادّان، والأول من ذینک الأصلین، یدلّ علی لین وذل، والآخر علی شدّة وغلظ».

هذه أقوال أصحاب المعاجم ولاـ تشذّ عنها أقوال أصحاب التفاسیر وهم یفسّرونه بنفس ما فسّر به أهل اللغة، غیر مکترثین بأنّ تفسیرهم، تفسیر لها بالمعنی الأعم.

۱- قال الطبری فی تفسیر قوله: «إیّاکَ نَعبُد» اللّهمّ لک نخشع ونذلّ ونستکین إقراراً لکَ یا ربّنا بالربوبیة لا لغیرک. إنّ العبودیة عند جمیع العرب أصلها الذلّة وأنّها تسمّی الطریق المذلّل الذی قد وطئته الأقدام وذلّلته السابلة معبَّداً، ومن ذلک قیل للبعیر المذلّل بالرکوب للحوائج: معبَّد، ومنه سمّی العبد عبداً، لذلّته لمولاه (۱).

۲- قال الزجاج: معنی العبادة: الطاعة مع الخضوع، یقال: هذا طریق معبّد إذا کان مذلّلا لکثرة الوطء، وبعیر معبّد إذا کان مطلیا بالقطران، فمعنی «إیّاکَ نَعبدُ»: إیاک

۱- الطبری، التفسیر ۱: ۵۳، ط دار المعرفة، بیروت.

ص: ۱۴

نطیع، الطاعة التی نخضع منها (۱).

۳- وقال الزمخشری: العبادة: أقصی غایة الخضوع والتذلّل، ومنه ثوب ذو عبدة أی فی غایة الصفافة، وقوة النسج، ولذلک لم تستعمل إلّافی الخضوع للّه‌تعالی لأنّه مولی أعظم النعم فکان حقیقاً بأقصی غایة الخضوع (۲).

۴- قال البغوی: العبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع وسمّی العبد عبداً لذلّته وانقیاده یقال: طریق معبّد، أی مذلّل (۳).

۵- قال ابن الجوزی: المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال:

أ- بمعنی التوحید «إیّاک نعبد» عن علی وابن عباس.

ب- بمعنی الطاعة کقوله تعالی «لا تَعبُدِ الشَّیطانَ».

ج- بمعنی الدعاء (۴).

۶- قال البیضاوی: العبادة أقصی غایة الخضوع والتذلّل، ومنه الطریق المعبّد أی مذلّل، وثوب ذو عبدة، إذا کان فی غایة الصفافة، ولذلک لا تستعمل إلّافی الخضوع

۱- الزجاج، معانی القرآن ۱: ۴۸.

۲- الزمخشری، الکشاف ۱: ۱۰.

۳- البغوی، التفسیر ۱: ۴۲.

۴- ابن الجوزی، زاد المستنیر ۱: ۱۲.

ص: ۱۵

للّه تعالى (۱).

وسيأتى أنّ تفسير العبادة بغاية الخضوع ربّما يكون تفسيراً بالأخص، إذ لا تشترط فى صدقها غاية الخضوع، ولذلك يعدُّ الخضوع المتعارف الذى يقوم به أبناء الدنيا أمام اللّه سبحانه عبادة، وإن لم يكن بصورة غاية التعظيم، وربّما يكون تفسيراً بالأعم، فإنّ خضوع العاشق لمعشوقه ربّما يبلغ نهايته ولا يكون عبادة.

۷- وقال القرطبى: نعبُد، معناه نطيع، والعبادة: الطاعة والتذلّل، وطريق معبّد إذا كان مذلّلًا للسالكين (۲).

۸- وقال الرازى: العبادة عبارة عن الفعل الذى يؤتى به لغرض تعظيم الغير وهو مأخوذ من قولهم: طريق مُعبَّد (۳).

وإذا قصّرنا النظر فى تفسير العبادة، على هذه التعاريف وقلنا بأنّها تعاريف تامّة جامعة للأفراد ومانعة للاغيار، لزم رَمى الأنبياء والمرسلين، والشهداء

۱- البيضاوى، أنوار التنزيل ۱: ۹.

۲- القرطبى، جامع أحكام القرآن ۱: ۱۴۵.

۳- الرازى، مفاتيح الغيب ۱: ۲۴۲، فى تفسير قوله تعالى: «إيّاكَ نعبدُ»

ص: ۱۶

والصدّيقين بالشرك وأنّهم- نستعيذ باللَّه- لم يتخلّصوا من مصائد الشرك، ولزم ألّا يصحّ تسجيل أحد من الناس فى قائمة الموحّدين.

وذلك لأنّ هذه التعاريف تفسّر العبادة بأنّها:

۱- إظهار التذلّل.

۲- إظهار الخضوع.

۳- الطاعة والخشوع والخضوع.

۴- أقصى غاية الخضوع.

وليس على أديم الأرض من لا يتذلّل أو لا يخشع ولا يخضع لغير اللَّه سبحانه وإليك بيان ذلك:

***

ليست العبادة نفس الخضوع أو نهايته

إنّ الخضوع والتـذلّل حتى إظهار نهايـة التـذلّل لا يساوى العبادة ولا يعدّ حداً منطقياً لها، بشـهادة أنّ خضوع الولد أمام والده، والتلميذ أمام اسـتاذه، والجنـدىُّ أمام قائـده، ليس عبادة لهم وإن بالغوا فى الخضوع والتـذلّل حتى ولو قبّل الولـدُ قـدمَ الوالـدين، فلا يعـد عمله عبادة، لأنّ اللَّه

ص: ۱۷

سبحانه يقول: «واخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمةِ» (الإسراء/ ۲۴).

وأوضح دليل على أنّ الخضوع المطلق وإن بلغ النهاية لا يعدّ عبادة هو أنّه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم وقال: «وإذْ قُلنا لِلمَلائِكةِ اسْجُدوا لآدَمَ» (البقرة/ ۳۴) وآدم كان مسجوداً له ككونه سبحانه مسجوداً له، مع أنّ الأول لم يكن عبادة وإلّا لم يأمر بها سبحانه، إذ كيف يأمر بعبادة غيره وفيالوقت نفسه ينهى عنها بتاتاً فى جميع الشرائع من لدن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه و آله، ولكن الثانى أى الخضوع للّه، عبادة.

واللّه سبحانه يصرّح فى أكثر من آية بأنّ الدعوة إلى عبادة اللّه سبحانه والنهى عن عبادة غيره، كانت أصلًا مشتركاً بين جميع الأنبياء، قال سبحانه: «ولَقَدْ بَعثنا فى كُلِّ امَّةٍ رَسولًا أنِ اعبدُوا اللّهَ واجْتَنِبوا الطّاغوتَ» (النحل/ ۳۶) وقال سبحانه: «وَما أرسَلنا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسولٍ إلّانُوحى إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلّا أنَا فَاعْبُدونِ» (الأنبياء/ ۲۵) وفى موضع آخر من الكتاب يعد سبحانه التوحيد فى العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية، إذ يقول: «قل يا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا

ص: ۱۸

إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيَنَنا وبَيَنَكمْ ألّا نَعْبدَ إلّااللَّهُ ولا نُشرِكَ بهِ شَيئاً» (آل عمران/ ۶۴)، ومعه كيف يأمر بسجود الملائكة لآدم الذى هو من مصاديق الخضوع النهائى؟ وهذا الاشكال لايندفع إلّا بنفى كون الخضوع عبادة، ببيان أنّ للعبادة مقوّماً لم يكن موجوداً فى سجود الملائكة لآدم.

ولم يكن آدم فحسب هو المسجود له بأمره سبحانه، بل يوسف الصديق كان نظيره، فقد سجد له أبواه وإخوته، وتحقّق تأويل رؤياه بنفس ذلك العمل، قال سبحانه حاكياً عن لسان يوسف: «إنّى رأيتُ أحدَ عشَر كوكباً والشَّمسَ والقَمَر رأَيتُهُمْ لى ساجِدِينَ» (يوسف/ ۴).

كما يحكى تحققه بقوله سبحانه: «ورَفعَ أبَويهِ عَلَى العَرشِ وخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وقالَ يا أبَتِ هذا تَأْويلُ رُؤْياىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلها رَبِّى حَقّاً» (يوسف/ ۱۰۰) ومعه كيف يصحّ تفسير العبادة بالخضوع أو نهايته.

إنّه سبحانه أمر جميع المسلمين بالطواف بالبيت، الذى ليس هو إلّاحجراً وطيناً، كما أمر بالسعى بين الصفا والمروة، قال سبحانه: «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيتِ العَتِيقِ» (الحج/ ۲۹) وقال سبحانه: «إنَّ الصَّفا والمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ البَيتَ أوِ

ص: ۱۹

اعْتَمَر فَلا جُناحَ عَلَيهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» (البقرة/ ۱۵۸).

فهل ترى أنّ الطواف حول التراب والجبال والحجر عبادة لهذه الأشياء بحجّة أنّه خضوع لها؟!

إنّ شعار المسلم الواقعى هو التذلّل للمؤمن والتعزّز على الكافر، قال سبحانه: «فَسَوْفَ يأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافِرينَ» (المائدة/ ۵۴).

فمجموع هذه الآيات وجميع مناسك الحج، يدلّان بوضوح على أنّ مطلق الخضوع والتذلّل ليس عبادة. ولو فسّرها أئمة اللغة بالخضوع والتذلّل، فقد فسّروها بالمعنى الأوسع، فلا محيص حينئذٍ عن القول بأنّ العبادة ليست إلّا نوعاً خاصاً من الخضوع. ولو سُميت فى بعض الموارد مطلق الخضوع عبادة، فإنّما سُميت من باب المبالغة والمجاز، يقول سبحانه: «أَرأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ أفأَنتَ تَكونُ عَليهِ وَكيلًا» (الفرقان/ ۴۳) فكما أنّ إطلاق اسم الإله على الهوى مجاز فكذا تسمية متابعة الهوى عبادة لها، ضرب من المجاز.

ومن ذلك يعلم مفاد قوله سبحانه: «ألَمْ أعْهَدْ إلَيكُمْ يا بَنى آدمَ أنْ لا تَعبُدوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ* وأنِ اعْبُدُونِى هذا

ص: ۲۰

صِراطٌ مُستقيمٌ» (يس/ ۶۰- ۶۱).

فـإنّ مَنْ يتَّبع قولَ الشَّيطـان فيتساهـل فى الصـلاة والصـيام، ويـترك الفرائض أو يشـرب الخمر ويرتكب الزنـا، فـإنّه بعمله هـذا يقـترف المعاصـى لأنّه يعبده كعبادة اللَّه، أو كعبادة المشـركين للأصنام ولأجل ذلك، لا يكون مشركاً محكوماً عليه بأحكام الشرك، وخارجاً عن عداد المسلمين، مع أنّه من عبدة الشيطان لكن بالمعنى الوسيع الأعم من الحقيقى والمجازىّ.

وربما يتوسع فى إطلاق العبادة فتطلق على مطلق الإصـغاء لكلام الغير، وفى الحديث: «من أصـغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدى عن اللَّه عزّ وجلّ فقد عبد اللَّه، وإن كان الناطق يؤدى عن الشيطان فقد عبد الشيطان» (۱).

توجيه غير سديد

اشارة

إنّ بعض من يفسّر العبادة بالخضوع والتذلّل عندما يقف أمام هذه الدلائل الوافرة، يحاول أن يجيب ويقول: إنّ

۱- الكلينى، الكافى ۶: ۴۳۴.

ص: ۲۱

سجود الملائكة لآدم أو سجود يعقوب وأبنائه ليوسف، لم يكن عبادة له ولا ليوسف، لأنّ ذلك كان بأمر اللَّه سبحانه ولولا أمره لانقلب عملهم عبادة لهما.

وهذا التوجيه بمعزِل عن التحقيق، لأنّ معنى ذلك أنّ أمر اللَّه يُغيّر الموضوع، ويبدل واقعه إلى غير ما كان عليه، مع أنّ الحكم لا يغيِّر الموضوع.

فلو نفترض أنّه سبحانه أمر بسبِّ المشرك والمنافق فأمره سبحانه لايخرج السبَّ عن كونه سباً، فلو كان مطلقُ الخضوع المتجلّى فى صورة السجود لآدم، أو ليوسف، عبادة لكان معنى ذلك أنّه سبحانه أمر بعبادة غيره، مع أنّها فحشاء بتصريح الذكر الحكيم لا يأمر بها سبحانه، قال تعالى: «إنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحشاءِ أتَقُولونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (الأعراف/ ۲۸).

وهناك تعاريف للعبادة لجملة من المحققين نأتى بها واحداً بعد الآخر:

۱- نظرية صاحب المنار فى تفسير العبادة

إنّ صاحب المنار لمّا وقف على بعض ما ذكرناه

ص: ۲۲

حاولَ أن يُفسّر العبادة بشكل يبعده عن بعض ما ذكرنا، لذلك أخذ فی التعريف قيوداً ثلاثة:

أ- العبادة ضرب من الخضوع بالِغٌ حدَّ النهاية.

ب- ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، لا يعرف منشأها.

ج- واعتقاده بسلطة لا يُدرَك كنهها وماهيتها.

ويلاحظ على هذا التعريف:

أولًا: أنّ التعريف غير جامع، وذلك لأنّه إذا كان مقوُّم العبادة، الخضوعَ البالغَ حدّ النهاية فلا يشمل العبادة الفاقدة للخشوع والخضوع التی يؤديها أكثر المتساهلين فی أمر الصلاة، وربما يكون خضوع الجندی لقائده أشدّ من هؤلاء المتساهلين الذين يتصوّرون الصلاة عبادة وجهداً.

وثانياً: ماذا يريد من قوله «عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها»؟ فهل يعتقد أنّ الأنبياء كانوا يستشعرون عظمة المعبود ولكن لا يعرفون منشأها. مع أنّ غيرهم يستشعر عظمة المعبود ويعرف منشأها، وهو

ص: ۲۳

أنّه سبحانه: الخالق البارئ، المصوّر، أو أنّه سبحانه هو الملك القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر.

وثالثاً: ماذا يريد من قوله: «واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها»؟.

فإن أراد شرطية هذا الاعتقاد فى تحقق العبادة، فلازم ذلك عدم صدقها على عبادة الأصنام والأوثان، فإنّ عُبّاد الأوثان يعبدونها وكانوا يعتقدون بكونهم شفعاء عند اللَّه سبحانه فقط لا أنّ لهم سلطة لا يدرك كنهُها وماهيتُها.

۲- نظرية الشيخ شلتوت، زعيم الأزهر

وقد عرّف شيخ الأزهر الأسبق العبادة بنفس ما عرّفها به صاحب المنار، ولكنّه يختلف عنه لفظاً ويتّحد معه معنىً، فقال: العبادة خضوع لا يحدُّ، لعظمة لا تحد (۱).

وهذا التعريف يشترك مع سابقه نقداً واشكالًا، وذلك أنّ العبادة ليست منحصرة فى خضوع لا يحدّ بل الخضوع المحدّد أيضاً ربّما يعد عبادة، كما إذا كان الخضوع بأقل

۱- تفسير القرآن الكريم: ۳۷.

ص: ۲۴

مراتبه. وكذلك لا يشترط كون الخضوع لعظمة لا تحدّ، إذ ربما تكون عظمة المعبود محدودة فى زعم العابد كما هو الحال فى عبادة الأصنام، الذى كان الدافع إلى عبادتها كونها شفعاء عند اللَّه.

۳- تعریف ابن تیمیة

وأكثر التعاريف عرضة للإشكال هو تعريف ابن تيمية إذ قال:

«العبادة اسم جامع لكلّ ما يحبّه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنية والظاهرية كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين وصلة الأرحام» (۱).

وهذا الكاتب لم يفرّق- فى الحقيقة- بين العبادة والتقرّب، وتصوّر أنّ كلّ عمل يوجب القربى إلى اللَّه، فهو عبادة له تعالى أيضاً، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، فهناك أُمور توجب رضا اللَّه، وتستوجب ثوابَه لكنها قد تكون عبادة كالصوم والصلاة والحج، وقد تكون موجبة للقرب

۱- مجلة البحوث الإسلامية، العدد ۲: ۱۸۷، نقلا عن كتاب العبودية: ۳۸.

ص: ۲۵

إليه دون أن تعدّ عبادة، كالإحسان إلى الوالدين، وإعطاء الزكاة، والخمس، فكل هذه الأُمور (الأخيرة) توجب القربى إلى اللّه فى حين لا تكون عبادة. وإن سمّيت فى مصطلح أهل الحديث عبادة، فيراد منها كونها نظير العبادة فى ترتّب الثواب عليها.

وبعبارة أُخرى: أنّ الإتيان بهذه الأعمال يعدّ طاعة للّه ولكن ليس طاعة عبادة.

وإن شئت قلت: إنّ هناك أُموراً عباديّة وأُموراً قربية، وكل عبادة مقرِّبة، وليس كل مقرِّب عبادة، فدعوة الفقير إلى الطعام، والعطف على اليتيم- مثلًا- توجب القرب ولكنّها ليست عبادة بمعنى أن يكون الآتى بها عابداً بعمله للّه تعالى.

وإذا وقفت على قصور هذه التعاريف هنا نذكر فى المقام تعريفين، كلّ يلازم الآخر.

ص: ۲۶

التعريف الأوّل: العبادة هى الخضوع للشىء بما أنّه إله

اشارة

إنّ لفظ العبادة من المفاهيم الواضحة، وربّما يكون ظهور معناها الواضح مانعاً عن التحديد الدقيق لها غير أنّه يمكن تحديدها من خلال الإمعان فى الموارد التى تستعمل فيها تلك اللفظة، فقد استعملها القرآن فى مورد الموحّدين والمشركين، وقال سبحانه فى الدعوة إلى عبادة نفسه «وَلكنْ أعبدُ اللَّهَ الَّذى يَتَوفّاكُمْ» (يونس/ ۱۰۴) وقال سبحانه: «قُلْ إنِّى أُمِرْتُ أنْ أعبُدَ اللَّهَ مُخلِصاً لَهُ الدِّينَ» (الزمر/ ۱۱).

وقال فى النهى عن عبادة غيره: «إنَّما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أوْثاناً وَتَخْلُقونَ إفْكاً» (العنكبوت/ ۱۷) وقال: «أتَعبُدونَ ما تَنْحِتُونَ» (الصافّات/ ۹۵): فعلى الباحث أن يقتنصَ معنى العبادة بالدقة فى أفعال العباد، وعقائدهم من غير فرق بين

ص: ٢٧

عبادة الموحّدين وعبادة المشركين فيجعله حدّاً منطقياً للعبادة.

إنّ الإمعان فى ذلك المجال يدفعنا إلى القول بأنّ العبادة عندهم عبارة عن الفعل الدالّ على الخضوع المقترن مع عقيدة خاصة فى حقّ المخضوع له، فالعنصر المقوّم للعبادة حينئذٍ أمران:

١- الفعل المنبنى عن الخضوع والتذلّل.

٢- العقيدة الخاصة التى تدفعه إلى عبادة المخضوع له.

أمّا الفعل، فلا يتجاوز عن قول أو عمل دالّ على الخضوع والتذلّل بأىّ مرتبة من مراتبها، كالتكلّم بكلام يؤدى إلى الخضوع له أو بعمل خارجى كالركوع والسجود بل الانحناء بالرأس، أو غير ذلك مما يدلّ على ذلّته وخضوعه أمام موجود.

وأمّا العقيدة التى تدفعه إلى الخضوع والتذلّل فهى عبارة عن:

١- الاعتقاد بإلوهيته.

٢- الاعتقاد بربوبيته.

أمّا الأوّل فالإلوهية منسوبة إلى اللّه وهو ليس بمعنى

ص: ۲۸

المعبود- وإن اشتهر فى الألسن- بل كونه معبوداً من لوازم كونه إلهاً لا ـ أنّه نفس معناه، بل الإله- كما يشهد عليه الذكر الحكيم- مرادف، للفظ الجلالة ويختلف معه فى الكلّية والجزئية، فاللّه كلّى ولفظ الجلالة علم جزئى.

وتوضيح ذلك أنّ الموحّدين عامة والوثنيين كلّهم، وعبدة الشمس والكواكب يعتقدون بإلوهية معبوداتهم إمّا لكون المعبود إلهاً كبيراً أو إلهاً صغيراً، إمّا إلهاً صادقاً أو إلهاً كاذباً، فالاعتقاد بإلوهية المعبود بهذا المعنى هو المقوّم لصدق العبادة.

ولأجل أنّه لا يستحق العبادة إلّامن كان إلهاً لذلك يؤكّد القرآنَ بأنّه لا إله إلّااللّه ومع ذلك فكيف تعبدون غيره.

يقول سبحانه: «الَّذِينَ يَجْعَلونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَسوفَ يَعْلَمونَ» (الحجر/ ۹۶).

«والَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ» (الفرقان/ ۶۸).

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهةً لِيكُونُوا لَهُمْ عِزّاً» (مريم/ ۸۱).

«أئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أنَّ معَ اللَّهِ آلِهةً أُخْرى» (الأنعام/ ۱۹).

وحاصل الآيات أنّ غيره سبحانه لا يستحق العبادة

ص: ۲۹

لأنّها من شؤون الإلوهیـة وهی من خصائص اللّه سبحانه لا غیر، فیتحصّل من ذلک أنّ العبادة عبارة عن الخضوع أمام موجود للاعتقاد بـأنّه إله حقیقیّ أو مجـازیّ، ولو لاـ ذلـک الاعتقـاد لا یوصف الخضوع بالعبادة، والشاهـد علیه أنّ العاشق الولهان إذا خضع لمعشوقته، خضوعـاً بالغـاً لاـ یعـد عبـادة لهـا، لأنّه لم یصـدر عن الاعتقاد بإلوهیتها وأنّها إله، وإنّما صـدر عن اعتقاد بأنّها جمیلـة تجـذب الإنسان بنفسیتها وجمالها.

ویـدل علی ما ذکرنا من أنّ دعوة المشـرکین وخضوعهم ونـداءهم وسؤالهم کانت مصـحوبة بالاعتقاد بإلوهیـة أصـنامهم، أنّه سـبحانه یفسّر الشرک فی بعض الآیات باتّخاذ إله مع اللّه.

ویقول: «وأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِکِینَ* إنّا کَفَیْناکَ المُستَهزِئِینَ* الَّذِینَ یَجْعَلونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَسوفَ یَعْلَمونَ» (الحجر/ ۹۴- ۹۶).

وفی بعض الآیـات ینـدّد بالمشـرکین بـأنّه لیس لهـم إلـه غیر اللّه فکیـف یعبـدون غیره، ویقـول: «أمْ لَهُـمْ إلـهٌ غَیرُ اللَّهِ سُـبحانَ اللَّهِ عَمّا یُشْرِکُونَ» (الطور/ ۴۳).

والإمعان فی هذه الآیات ونظائرها یؤکد أنّ اندفاع

ص: ۳۰

المشركين إلى عبادة الأصنام أو انـدفاع الموحّدين إلى عبادة اللَّه هو اعتقادهم بكونهم آلهة أو كونه إلهاً، فهذا الاعتقاد كان يدفعهم إلى العبادة، ولأجل ذلك كانوا يقدّمون لمعبوداتهم النذور والقرابين وغيرهما من التقاليد والسنن. ولمّا كانت كلمة التوحيد تهدِّم عقيدتهم بإلوهية غيره سبحانه لذلك كانوا يستكبرون عند سماعها، كما قال سبحانه: «إنَّهُمْ كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إلهَ إلّااللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» (الصافات/ ۳۵).

ثم إنّ الاعتقاد بإلوهية الأصنام لا يلازم الاعتقاد بكون المعبود خالقاً للعالم حتى يقال بأنّ المشركين فى الجاهلية كانوا موحدين فى الخالقية، كما يدل على ذلك أكثر من آية. قال سبحانه:

«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ» (الزخرف/ ۹).

إذ للإلوهية شؤون عندهم يقوم ببعضها الإله الأعلى كخلق السماوات والأرض، وبعضها الآخر الآلهة المزعومة المتخيّلة عندهم، كغفران الذنوب والشفاعة المطلقة المقبولة بلا قيد وشرط، وبما أنّ هذين الأمرين

ص: ۳۱

الأخيرين من شؤون الإله الأعلى أيضاً وليس للآلهة المزعومة فيها حظّ ولا نصيب، يركّز القرآن على إثباتهما للَّه سبحانه فقط ويقول: «ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلّااللَّهُ» (آل عمران/ ۱۳۵). ويقول: «قُلْ للَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً» (الزمر/ ۴۴).

وفى ضوء ذلك فالمشركون كانوا معتقدين بالإله الأعلى الأكبر وفى الوقت نفسه يعتقدون بآلهة شتّى ليس لهم من الشؤون ماللإله الأعلى منها، وفى الوقت نفسه كانت الآلهة عندهم مخلوقين للَّهسبحانه، مفوّضين إليهم بعض الشؤون كما عرفت.

ترادف الإله ولفظ الجلالة

إنّ الدليل الواضح على أنّ الإله يرادف لفظ الجلالة ولكن يفترق عنها بالجزئية والكلية الأُمور التالية:

أ- وحدة المادة، إذ الأصل للفظ الجلالة هو الإله، فحذفت الهمزة وعوّض اللام، ولذلك قيل فى النداء: «يا اللَّه، بالقطع كما يقال: يا إله» (۱).

ب- الآيات التى استدلّ فيها على وحدة الإله صريحة

۱- الزمخشرى، الكشاف ۱: ۳۰.

ص: ٣٢

فى أنّ المراد من الإله هو المتصرّف المدبّر، أو من بيده أزمّة الأُمور أو ما يقرب من ذلك، ولا يصح تفسير الإله بالمعبود وإلّا لفسد الاستدلال، وإليك الآيات الواردة فى ذلك المجال.

١- «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلّااللَّهُ لَفَسدَتا» (الأنبياء/ ٢٢) فإنّ البرهان على نفى تعدّد الآلهة لا يتم إلّاإذا جعلنا «الإله» فى الآية بمعنى المتصرّف المدبّر أو من بيده أزمّة الأُمور أو ما يقرب من هذين، ولو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقص البرهان لبداهة تعدّد المعبودين فى هذا العالم، مع عدم فساد النظام الكونى وقد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة بل ومركزها مع انتظام العالم وعدم فساده.

وعندئذ يجب على من يجعل «الإله» بمعنى المعبود أن يقيّده بلفظ «بالحق» أى لو كان فيهما معبودات- بالحق- لفسدتا، ولمّا كان المعبود بالحقّ مدبراً أو متصرّفاً لزم من تعدّده فساد النظام وهذا كلّه تكلّف لا مبرّر له.

٢- «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعضٍ» (المؤمنون/ ٩١).

ويتمّ هذا البرهان أيضاً لو فسّرنا الإله بما ذكرنا من أنّه

ص: ۳۳

کلّیّ، ما یطلق علیه لفظ الجلالة. وإن شئت قلت: إنّه کنایة عن الخالق أو المدبّر المتصرّف أو من یقوم بأفعاله وشؤونه، والمناسب فی هذا المقام هو الخالق، ویلزم من تعدّده ما رتّب علیه فی الآیة من ذهاب کلّ إله بما خلق واعتلاء بعضهم علی بعض.

ولو جعلناه بمعنی المعبود لانتقص البرهان، ولا یلزم من تعدّده أیّ اختلال فی الکون. وأدلّ دلیل علی ذلک هو المشاهدة. فإنّ فی العالم آلهة متعدّدة، وقد کان فی أطراف الکعبة المشرّفة ثلاثمائة وستون إلهاً ومع ذلک لم یقع أیّ فساد أو اختلال فی الکون.

فیلزم من یفسّر (الإله) بالمعبود ارتکاب التکلّف بما ذکرناه فی الآیة المتقدمة.

۳- «قُلْ لَوْ کانَ مَعَهُ آلِهَةٌ کَما یَقُولونَ إذاً لَابْتَغَوْا إلی ذِی العَرْشِ سَبِیلًا» (الإسراء/ ۴۲) فإنّ ابتغاء السبیل إلی ذی العرش من لوازم تعدّد الخالق المدبّر المتصرف، أو من بیده أزمّة أُمور الکون أو غیر ذلک ممّا یرسمه فی ذهننا معنی الإلوهیة، وأمّا تعدّد المعبود فلا یلازم ذلک إلّابالتکلّف الذی أشرنا إلیه فیما سبق.

ص: ۳۴

۴- «إِنَّكُمْ وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ* لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها» (الأنبياء/ ۹۸- ۹۹) والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان فى النار، على بطلان كونها آلهة إذ لو كانت آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنّما يتم لو فسّرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإنّ خالق العالم أو مدبّره والمتصرّف فيه أو من فوّض إليه أفعال اللّه أجلّ من أن يحكم عليه بالنار وأن يكون حصب جهنم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود فلا يتم البرهان، لأنّ المفروض أنّها كانت معبودات وقد جعلت حصب جهنّم. ولو أمعنت فى الآيات التى ورد فيها لفظ الإله والآلهة لقدرت على استظهار ما اخترناه.

حصيلة البحث: أنّ العبادة عبارة عن الخضوع الصادر عمّن يتّخذه الخاضع إلهاً، وما ذكرناه على وجه التفصيل هو الذى أفرغه الشيخ جواد البلاغى فى قالب التعريف وقال: العبادة ما يرونه مشعراً بالخضوع لمن يتّخذه الخاضع إلهاً، ليوفيه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلوهية (۱).

۱- البلاغى، آلاء الرحمن: ۵۷، ط صيدا.

ص: ۳۵

التعریف الثانی: العبادة عبارة عن الخضوع للشیء علی أنّه ربّ

اشارة

واللغویون وإن ذکروا للربّ معانی مختلفة کالخالق والمالک والصاحب والمصلح، ولکن الظاهر أنّ أکثر هذه المعانی من لوازم المعنی الواحد، ویمکن تصویره بأنّه من فوّض إلیه أمر الشیء من حیث الإصلاح والتدبیر والتربیة، فلو أُطلق الربّ علی الخالق فلأنّه یقوم بإصلاح مخلوقه وتدبیره، وتربیته. ولو أُطلق علی صاحب المزرعة ربّ الضیعة، أو علی سائس القوم أنّه ربّهم، فلأنّ الأوّلَ یقوم بتصلیح أُمور المزرعة، والثانی بتدبیر أُمور القوم وشؤونهم وقس علی ذلک سائر الأُمور، فاللَّه سبحانه ربّ العالمین، و «رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ» (الصافات/ ۵) و «هُوَ رَبُ

ص: ۳۶

الشِّعْرى» (النجم/ ۴۹) فلأجل أنّه سبحانه مدبّر ومدير ومتصرّف فى شؤونها والقائم عليها. فلو أُطلق الربّ على مالك الدابة فلأجل أنّه فُوِّض إليه إصلاح المملوك.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى اللَّه سبحانه يعلّل فى بعض الآيات حصر العبادة فى اللَّه سبحانه حيث حصر الربوبية به دون غيره، فتدلّ بصراحة على أنّ العبادة من شؤون الربوبية، وإليك بعض الآيات.

وقال المسيح:

«يا بَنِى إسْرائيلَ اعْبُدوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ» (المائدة/ ۷۲). «إنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء/ ۹۲). «إنَّ اللَّهِ رَبِّى ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتقِيمٌ» (آل عمران/ ۵۱).

وإذا عرفت هذين الأمرين:

۱- الربّ من فوّض إليه تدبير الشىء وإصلاحه وتربيته.

۲- إنّ الآيات تعلّل حصر العبادة فى اللَّه بكونه ربّاً.

فستعرف أنّ اتّسام الخضوع، والسؤال والدعاء بالعبادة من شؤون الاعتقاد بكون المخضوع له ربّاً بيده مسير الخاضع ومصيره، وإن شئت قلت: بيده شأن أو

ص: ۳۷

شؤون مَن حیاته الدنیویة أو الأُخرویة بیده، فالخضوع المقرون بهذا الاعتقاد یُضفی علیه عنوان العبادة.

ولیعلم أنّ المراد من کون الرب مالکاً لشأن من شؤون حیاته لیس المراد هو المالکیة القانونیة والوضعیة التی تُعطی للإنسان حیناً وتسلَب عنه حیناً آخر، بل المراد المالکیة التکوینیة المستمدّة من الخالقیة کما فی الإله الأعلی أو من تفویض الإله الأعلی لها، کما هو الحال عند آلهة المشرکین- علی زعمهم- الذین یعتقدون بأنّه سبحانه فوّض إلیهم بعضَ شؤون حیاتهم، کغفران الذنوب والشفاعة، بل یظهر ممّا نقله ابن هشام فی سیرته أنّ الشرک دخل مکّة فی صورة الشرک فی الربوبیة فیما یرجع إلی الاستمطار، یقول ابن هشام: «کان عمرو بن لحی» أول من أدخل الوثنیة إلی مکّة ونواحیها، فقد رأی فی سفره إلی البلقاء من أراضی الشام أُناساً یعبدون الأوثانَ وعندما سألهم عمّا یفعلون قائلًا:

ما هذه الأصنام التی أراکم تعبدونها؟

قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا!

ص: ۳۸

فقال لهم: أفلا تعطونى منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟

وهكذا استحسن طريقتهم واستصحب معه إلى مكة صنماً كبيراً باسم «هبل» ووضعه على سطح الكعبة المشرّفة ودعا الناس إلى عبادتها (۱).

إذن فاستمطار المطر من هـذه الأوثان والاستعانة بها يكشف عن أنّ بعض المشركين كانوا يعتقدون بأنّ لهذه الأوثان دخلًا فى تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

نتيجة البحث

إذا عرفنا أنّ مقومّ العبادة عبارة عن اعتقاد السائل والخاضع والـداعى أو المنادى بأنّ المسؤول والمخضوع له «إله» و «ربّ» يملك شيئاً ممّـا يرجع إليه فى عـاجله أو آجله، فى مسيره ومصيره، وإنّه يقوم بـذلك لكونه خالقاً أو مفوَّضاً إليه من قبل الخالق، فيقوم على وجه الاستقلال والأصالة، تستطيع أن تقضى فى الأعمال التى يقوم بها اشياع الأنبياء ومحبّوهم، بأنّها ليست عبادة أبداً وإنّما هى

۱– سيرة ابن هشام ۱: ۷۹.

ص: ۳۹

من مصاديق التكريم والاحترام وإن بلغت نهاية التذلّل، لأنّها لا تنطلق من اعتقاد الخاضع بإلوهية النبى، ولا ربوبيته بل تنطلق عن الاعتقاد بكونهم عباد اللّه الصالحين، وعباده المكرمين الذين لا يعصون اللّه وهم بأمره يعملون، نظير:

۱- تقبيل الأضرحة وأبواب المشاهد التى تضمّ أجساد الأنبياء والأولياء، فإنّ ذلك ليس عبادة لصاحب القبر والمشهد، لفقدان عنصر العبادة فيما يفعله الإنسان من التقبيل واللّمس وما شابه ذلك.

۲- إقامة الصلاة فى مشاهد الأولياء تبركاً بالأرض التى تضمنت جسد النبى أو الإمام، كما تبرّك بالصلاة عند مقام إبراهيم اتّباعاً لقوله تعالى: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهِيمَ مُصَلّى» (البقرة/ ۱۲۵).

۳- التوسّل بالنبى سواء كان توسلًا بذاته وشخصه، أو بمقامه وشخصيته أو بدعائه فى حال حياته ومماته، فإنّ ذلك كلّه لا يكون عبادة لعدم الاعتقاد بإلوهية النبىّ ولا ربوبيته، ويعدّ من التوسّل بالأسباب، سواء كان المدعوّ قادراً على إنجاز العمل أو عاجزاً، غاية الأمر يكون التوسّل

ص: ۴۰

فى صورة العجز غير مفيد، لا متّسماً بالشرك، فلو افترضنا أنّ الأنبياء والأئمة فى حال الممات غير قادرين على شىء فالدعاء والتوسّل بهم مع كونهم عاجزين لا يجعل العمل شركاً، بل يجعله لغواً، مع أنّ أصل المبنى باطل أى أنّهم غير قادرين فى حال الممات.

۴- طلب الشفاعة من الأنبياء أو النبىّ الأكرم ليس شركاً لأنّه يطلبها منه بقيد أنّه عبد مأذون لا أنّه مفوّض إليه أمرها، وفى الواقع إمّا أن يكون مأذوناً فيشفع وإما أن يكون الطلب لغواً.

۵- الاستغاثة بالأرواح المقدّسة ليس إلّاكالاستغاثة بهم فى حال حياتهم، فهى على وجه يتّسم بالشرك من غير فرق بين حالى الحياة والممات ولا- يتّسم به على وجه آخر، كذلك فلو استغاث به بما أنّه عبد أقدره اللّه تعالى على الإجابة حياً وميتاً، يكون من قبيل التوسّل بالأسباب، وإن استغاث به بما أنّه إله أو ربّ يقوم بالاستغاثة أصالة واستقلالًا وأنّه فوّض إليه حياة المستغيث عاجلًا وآجلًا، فهو شرك من غير فرق بين الحالتين.

هذا خلاصة البحث حول حصر العبادة باللّه سبحانه،

ص: ۴۱

وإذا أمعنت فيما ذكرنا يمكنك على بعض ما أثارته بعض المناهج الفكرية فى الأوساط الإسلامية حول هذه الأُمور، التى نسبت جلّ المسلمين إلى الشرك فى العبادة مع أنّهم بمنأى عن الشرك.

الفوضى فى التطبيق بين الإمام والمأموم

لقد ترك الإهمال فى تفسير العبادة تفسيراً منطقياً، فوضى كبيرة فى مقام التطبيق بين الإمام والمأموم فنرى أنّ إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (۱۶۴- ۲۴۱ ه) صدر عن فطرة سليمة فى تفسير العبادة، وأفتى بجواز مسِّ منبر النبىّ صلى الله عليه و آله والتبرّك به وبقبره وتقبيلهما عندما سأله ولده عبد اللَّه بن أحمد، وقال: سألته عن الرجل يمسُّ منبرَ النبىِّ صلى الله عليه و آله ويتبرّك بمسِّه، ويُقَبّله، ويفعل بالقبر مثل ذلك، يريد بذلك التقرّب إلى اللَّه عزّ وجلّ؟ فقال: «لابأس بذلك» (۱).

هذه هى فتوى الإمام- الذى يفتخر بمنهجه أحمد بن تيمية، وبعده محمد بن عبد الوهاب- ولم ير بأساً بذلك،

۱- أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال ۲: ۴۹۲، برقم: ۳۲۴۳، تحقيق الدكتور وصى اللَّه عباس، ط بيروت ۱۴۰۸.

ص: ۴۲

لما عرفت من أنّ العبادة لیست مجرّد الخضوع، فلا یکون مجرّد التوجّه إلی الأجسام والجمادات عبادة، بل هی عبارة عن الخضوع نحو الشی، باعتبار أنّه إله أو ربّ، أو بیده مصیر الخاضع فی عاجله وآجله، وأمّا مسّ المنبر أو القبر وتقبیلهما، کل ذلک لغایة التکریم والتعظیم لنبیّ التوحید، وإن کان لغایة التبرّک فلا یتجاوز التبرّک فی المقام عن تبرّک یعقوب بقمیص ابنه یوسف، ولم یخطر بخلد أحد من المسلمین إلی الیوم الذی جاء فیه ابن تیمیة بالبدع الجدیدة، أنّها عبادة لصاحب القمیص والمنبر والقبر أو لنفس تلک الأشیاء. ولمّا کانت فتوی الإمام ثقیلة علی محقق الکتاب، أو من علق علیه لأنها تتناقض مع ما علیه الوهابیة وتبطل أحلام ابن تیمیة، ومن لفَّ لفَّه، حاول ذلک الکاتب أن یوفّق بین جواب الإمام وما علیه الوهابیة فی العصر الحاضر، فقال: «أمّا مسّ منبر النبیّ فقد أثبت الإمام ابن تیمیة فی الجواب الباهر (ص ۴۱) فعله عن ابن عمر دون غیره من الصحابة، وری أبو بکر بن أبی شیبة فی المصنف (۴/ ۱۲۱) عن زید بن الحباب قال: حدّثنی أبو مودود قال:

ص: ۴۳

حدّثنى يزيد بن عبد الملك بن قسيط قال: رأيت نفراً من أصحاب النبىّ إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى زمانة المنبر القرعاء فمسحوها، ودعوا قال: ورأيت يزيد يفعل ذلك.

وهذا لما كان منبره الذى لامس جسمه الشريف، أمّا الآن بعد ما تغيّر لا يقال بمشروعية مسحه تبركاً به».

ويلاحظ على هذا الكلام: بعد وجود التناقض بين ما نقل عن ابن تيمية من تخصيص المسّ بمنبر النبىّ با بن عمر، وما نقله عن المصنف لابن أبى شيبة من مسح نفر من أصحاب النبىّ زمانة المنبر:

أوّلًا: لو كان جواز المسّ مختصّاً بالمنبر الذى لامسه جسم النبى الشريف دون ما لايمس كان على الإمام المفتى أن يذكر القيدَ، ولا يُطلق كلامَه، حتى ولو افترضنا أنّ المنبر الموجود فى المسجد النبوى فى عصره كان نفسَ المنبر الذى لامسَه جسمُ النبىّ الأكرم، وهذا لا ـ يغيب عن ذهن المفتى، إذ لو كان تقبيل أحد المنبرين نفس التوحيد، وتقبيل المنبر الآخر عينَ الشرك، لما جاز للمفتى أن يغفل التقسيم والتصنيف.

وثانياً: أنّ ما يفسده هذا التحليل أكثر ممّا يصلحه،

ص: ۴۴

وذلـك لأنّ معناه أنّ لجسمه الشريف تـأثيراً فى المنبر وما تبرّك به، وهـذا يناقض التوحيـد الربوبى من أنّه لا مؤثّر فى الكون إلّااللّه سبحانه، فكيف يعترف الوهابى بأنّ لجسمه الشريف فى الجسم الجامد تأثيراً وأنّه يجوز للمسلمين أن يتأثروا به عبر القرون.

ثم إنّ المعلّق استثنى مسّ قبر النبى صلى الله عليه و آله والتبرك به، ومنعهما وقال فى وجهه:

«وأمّا جواز مسّ قبر النبىّ والتبرّك به فهذا القول غريب جداً لم أر أحداً نقله عن الإمام، وقال ابن تيمية فى الجواب الباهر لزوار المقابر (ص ۳۱): اتّفق الأئمـة على أنّه لا يمسّ قبر النبى ولا يقبله، وهـذا كلّه محافظة على التوحيد، فإنّ من أُصول الشرك باللّه اتّخاذ القبور مساجد» (۱).

لكن يلاحظ عليه: كيف يقول: لم أجـد أحـداً نقله عن الإمام، أوَ ليس ولـده أبو عبد اللّه راوية أبيه وكتبه يروى هذه الفتوى؟ وهو ثقة عند الحنابلة!

وأمّا التفريق بين مسّ المنبر والقبر بجعل الأول نفس

۱- تعليقة المحقق، نفس الصفحة.

ص: ۴۵

التوحيد، والثانى أساس الشرك، فمن غرائب الأُمور، لأنّ الأمرين يشتركان فى التوجّه إلى غير اللَّه سبحانه، فلو كان هذا محرز الشرك، فالموضوعات سيّان، وإن فرّق بينهما بأنّ الماسّ، ينتفع بالأول دون الثانى لعدم مسّ جسده بالثانى فلازمه كون الأول نافعاً والثانى أمراً باطلًا دون أن يكون شركاً.

ولو رجع المحقق إلى الصحاح والمسانيد وكتب السيرة والتاريخ، لوقف على أنّ التبرّك بالقبر ومسّه، كان أمراً رائجاً بين المسلمين فى عصر الصحابة والتابعين، ولأجل إيقاف القارئ على صحة ما نقول نذكر نموذجين من ذلك:

۱- إنّ فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت رسول اللَّه حضرت عند قبر أبيها صلى الله عليه و آله وأخذت قبضة من تراب القبر تشمّه وتبكى وتقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ألّا يشمّ مدَى الزمان غَواليا

ص: ۴۶

صُبَّت عليَّ مصائب لو أنّها صُبَّت على الأيّامِ صِرنَ لَياليا (۱)

إنّ هذا التصرّف من السيدة الزهراء المعصومة يدل على جواز التبرّك بقبر رسول اللَّه وتربته الطاهرة.

۲- إنّ بلال- مؤذّن رسول اللَّه- أقام فى الشام فى عهد عمر بن الخطاب فرأى فى منامه النبىّ صلى الله عليه و آله وهو يقول:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آنَ لك أن تزورنى يا بلال؟»

فانتبه حزيناً وَجِلًا خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبىّ صلى الله عليه و آله فجعل يبكى عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يضمّهما ويقبّلهما ... إلى آخر الخبر (۲).

۱- لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرخين، منهم السمهودى فى وفاء الوفا ۲: ۴۴۴- والخالدى فى صلح الاخوان: ۵۷، وغيرهما

۲- ابن الأثير، أُسد الغابة ۱: ۲۸، وغيره من المصادر.

ص: ۴۷

المسألة الثانية:

حصر الاستعانة فى اللَّه

اشارة

هذه هى المسألة الثانية التى طرحت فى صدر المقال وقلنا: إنّ المسلمين فى أقطار العالم يَحصرون الاستعانة فى اللَّه سبحانه ومع ذلك يستعينون بالأسباب العادية، جرياً على القاعدة السائدة بين العقلاء، ولا يرونه مخالفاً للحصر، كما أنّ المتوسّلين بأرواح الأنبياء يستعينون بهم فى مشاهدهم ومزاراتهم ولا يرون تعارض ذلك مع حصر الاستعانة باللَّه سبحانه، وذلك لأنَّ الاستعانة بغير اللَّه يمكن أن تتحقق بصورتين:

۱- أن نستعين بعامل- سواء أكان طبيعياً أم غير طبيعى- مع الاعتقاد بأنّ علمه مستند إلى اللَّه، بمعنى أنّه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبة من اللَّه

ص: ۴۸

وإذنه.

وهـذا النوع من الاسـتعانة- فى الحقيقة- لا ينفك عن الاسـتعانة باللَّه ذاته، لأنّه ينطوى على الاعتراف بأنّه هو الذى منح تلك العوامل، ذلك الأثر، وأذن بها، وإن شاء سلبها وجرّدها منه.

فـإذا اســتعان الزارع بعوامـل طبيعيـة كالشــمس والمـاء وحرث الأـرض، فقـد اســتعان بـاللَّه- فى الحقيقـة- لأـنّه تعـالى هوالـذى منح هذهالعوامل: القدرة على إنماء ماأودع فى بطن الأرض من بذر ومن ثم إنباته والوصول به إلى حدّ الكمال.

۲- وإذا استعان بإنسان أو عامل طبيعى مع الاعتقاد بأنّه مستقلّ فى وجوده، أو فى فعله عن اللَّه، فلا شك أنّ ذلك الاعتقاد يصير شركاً والاستعانة به عبادة.

فإذا اسـتعان زارع بالعوامل المـذكورة وهو يعتقـد بأنّها مسـتقلّة فى تأثيرها أو أنّها مسـتقلّة فى وجودها ومادتها كما فى فعلها وقـدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة.

وبذلك يظهر أنّ الاسـتعانة المنحصـرة فى اللَّه المنصوص عليها فى قوله تعالى «وإيّاك نَسـتعينُ» هى الاستعانة بالمعونة المستقلّة النابعة من ذات المستعان به،

ص: ۴۹

غیر المتوقّفهٔ علی شیء، فهذا هو المنحصر فی اللَّه تعالی، وأمّا الاستعانهٔ بالإنسان الذی لا یقوم بشیء إلّابحول اللَّه وقوّته وإذنه ومشیئته، فهی غیر منحصرهٔ باللَّه سبحانه، بل إنّ الحیاهٔ قائمهٔ علی هذا الأساس، فإنّ الحیاهٔ البشریهٔ ملیئهٔ بالاستعانهٔ بالأسباب التی تؤثّر وتعمل بإذن اللَّه تعالی.

وعلی ذلک لا مانع من حصر الاستعانهٔ فی اللَّه سبحانه بمعنی، وتجویزها بغیره بمعنی آخر وهو ما له نظر فی الکتاب العزیز.

ولإیقاف القارئ علی هذه الحقیقهٔ نلفت نظره إلی آیات تحصر جملهٔ من الأفعال الکونیهٔ فی اللَّه تارهٔ، مع أنّها تنسب نفس الأفعال فی آیات أُخری إلی غیر اللَّه أیضاً، وما هذا إلّالعدم التنافی بین النسبتین لاختلاف نوعیتهما فهی محصورهٔ فی اللَّه سبحانه مع قید الاستقلال، ومع ذلک تنسب إلی غیر اللَّه مع قید التبعیهٔ والعرضیهٔ.

الآیات التی تنسب الظواهر الکونیهٔ إلی اللَّه وإلی غیره:

۱- یقول سبحانه: «وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ» (الشعراء/ ۸۰). بینما یقول سبحانه فیه (أی فی العسل): «شِفاءٌ

ص: ۵۰

لِلنّاسِ» (النحل/ ۶۹).

۲- یقول سبحانه: «إنّ اللَّهَ هُوَ الرَّزّاقُ» (الذاریات/ ۵۸) بینما یقول: «وارْزُقُوهُمْ فِیها» (النساء/ ۵).

۳- یقول سبحانه: «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ» (الواقعهٔ/ ۶۴). بینما یقول سبحانه: «یُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِیَغِظَ بِهِمُ الکُفّارُ» (الفتح/ ۲۹).

۴- یقول تعالی: «واللَّهُ یَکْتُبُ ما یُبَیِّتُونَ» (النساء/ ۸۱).

بینما یقول سبحانه: «بَلَی ورُسُلُنا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ» (الزخرف/ ۸۰).

۵- یقول تعالی: «ثُمَّ اسْتَوی عَلَی العَرْشِ یُدَبِّرُ الأَمْرَ» (یونس/ ۳). بینما یقول سبحانه: «فالمُدَبِّراتِ أَمراً» (النازعات/ ۵).

۶- یقول سبحانه: «اللَّهُ یَتوفَّی الأنْفُسَ حِینَ مَوْتِها» (الزمر/ ۴۲). بینما یقول: «الَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ المَلائِکَهُٔ طَیِّبِینَ» (النحل/ ۳۲).

إلی غیر ذلک من الآیات التی تنسب الظواهر الکونیهٔ تارهٔ إلی اللَّه، وتارهٔ إلی غیره تعالی.

والحل أن یقال: إنّ المحصور باللَّه تعالی هو انتساب هذه الأُمور علی نحو الاستقلال، وأمّا المنسوب إلی غیره فهو علی نحو التبعیهٔ، وبإذنه تعالی، ولا تعارض بین

ص: ۵۱

النسبتين ولا بين الاعتقاد بكليهما.

فمن اعتقد بأنّ هذه الظواهر الكونية مستندة إلى غير اللّه على وجه التبعية لا الاستقلال لم يكن مخطئاً ولا مشركاً، وكذا من استعان بالنبيّ أو الإمام على هذا الوجه.

هذا مضافاً إلى أنّه تعالى الذى يعلّمنا أن نستعين به فنقول: «إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَستَعِينُ» يحثّنا فى آية أُخرى على الاستعانة بالصبر والصلاة فيقول: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ» (البقرة/ ۴۵) وليس الصبر والصلاة إلّافعل الإنسان نفسه.

حصيلة البحث:

إنّ الآيات الواردة حول الاستعانة على صنفين:

الصنف الأول: يحصر الاستعانة فى اللّه فقط ويعتبره الناصر والمعين الوحيد دون سواه.

والصنف الثانى: يدعونا إلى سلسلة من الأُمور المعينة (غير اللّه) ويعتبرها ناصرة ومعينة، إلى جانب اللّه.

أقول: اتضح من البيان السابق وجه الجمع بين هذين النوعين من الآيات، وتبيّن أنّه لا تعارض بين الصنفين

ص: ۵۲

مطلقاً، إلّاأنّ فريقاً نجدهم يتمسّكون بالصنف الأوّل من الآيات فيخطّئون أىّ نوع من الاستعانة بغير اللَّه، ثم يضطرّون إلى إخراج (الاستعانة بالقدرة الإنسانية والأسباب المادية) من عموم تلك الآيات الحاصرة للاستعانة باللَّه بنحو التخصيص، بمعنى أنّهم يقولون: إنّ الاستعانة لا تجوز إلّاباللَّه إلّافى الموارد التى أذن اللَّه بها، وأجاز أن يستعان فيها بغيره، فتكون الاستعانة بالقدرة الإنسانية والعوامل الطبيعية- مع أنّها استعانة بغير اللَّه- جائزة ومشروعة على وجه التخصيص، وهذا ممّا لا يرتضيه الموحّد.

فى حين أنّ هدف الآيات هو غير هذا تماماً، فإنّ مجموع الآيات يدعو إلى أمر واحد وهو: عدم الاستعانة بغير اللَّه، وأنّ الاستعانة بالعوامل الأُخرى يجب أن تكون بنحو لا يتنافى مع حصر الاستعانة فى اللَّه بل تكون بحيث تعدّ استعانة باللَّه لا استعانة بغيره.

وبتعبير آخر: إنّ الآيات تريد أن تقول: بأنّ المعين والناصر الوحيد والذى يستمدّ منه كلّ معين وناصر، قدرته وتأثيره، ليس إلّااللَّه سبحانه، ولكنّه- مع ذلك- أقام

ص: ۵۳

هذا الكون على سلسلة من الأسباب والعلل التى تعمل بقدرته وأمر باستمداد الفرع من الأصل، ولذلك تكون الاستعانة به كالاستعانة باللّه، ذلك لأنّ الاستعانة بالفرع استعانة بالأصل.

وإليك فيما يلى إشارة إلى بعض الآيات من الصنفين:

«ومَا النَّصرُ إلّامِنْ عِنْدِ اللَّهِ العَزيزِ الحَكيم» (آل عمران/ ۱۲۶).

«إيّاکَ نَعْبُدُ وإيّاکَ نَستَعِينُ» (الحمد/ ۵).

«ومَا النَّصْرُ إلّامِنْ عِنْدِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ» (الأنفال/ ۱۰).

هـذه الآيـات نمـاذج من الصـنف الأول وإليـك فيما يأتى نماذج من الصـنف الآخر الـذى يـدعونا إلى الاسـتعانة بغير اللّه من العوامل والأسباب:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ» (البقرة/ ۴۵).

«وتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوى» (المائدة/ ۲).

«ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيرٌ فَأعِينُونِى بِقُوَّةٍ» (الكهف/ ۹۵).

«وإنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ» (الأنفال/ ۷۲).

ومفتاح حلّ التعارض بين هذين الصنفين من الآيات هو ما ذكرناه وملخّصه:

إنّ فى الكون مؤثراً تاماً، ومستقلّا واحداً، غير معتمد

ص: ۵۴

على غيره لا فى وجوده ولا فى فعله وهو اللَّه سبحانه:

وأمّا العوامل الأُخر فجميعها مفتقرة- فى وجودها وفعلها- إليه وهى تؤدى ما تؤدى بإذنه ومشيئته وقدرته، ولو لم يعط سبحانه تلك العوامل ما أعطاها من القدرة ولم تجر مشيئته على الاستمداد منها لما كانت لها أيّة قدرة على شيء.

فالمعين الحقيقى فى كل المراحل- على هذا النحو تماماً- هو اللَّه فلا يمكن الاستعانة بأحد باعتباره معيناً مستقلّاً. لهذه الجهة حصر هنا الاستعانة فى اللَّه وحده، ولكن هذا لا- يمنع بتاتاً من الاستعانة بغير اللَّه باعتباره غير مستقلّ (أى باعتباره معيناً بالاعتماد على القدرة الإلهية) ومعلوم أنّ استعانة- كهذه- لا تنافى حصر الاستعانة فى اللَّه سبحانه لسببين:

أوّلًا: لأنّ الاستعانة المخصوصة باللَّه هى غير الاستعانة بالعوامل الأُخرى، فالاستعانة المخصوصة باللَّه هى: (ما تكون باعتقاد أنّه قادر على إعانتنا بالذات، وبدون الاعتماد على غيرها، فى حين أنّ الاستعانة بغير اللَّه سبحانه إمّا هى على نحو آخر، أى مع الاعتقاد بأنّ المستعان قادر

ص: ۵۵

على الإعانة مستنداً على القدرة الإلهية، لا بالذات، وبنحو الاستقلال، فإذا كانت الاستعانة- على النحول الأوّل- خاصّة باللَّه تعالى فإنّ ذلك لا يدل على أنّ الاستعانة بصورتها الثانية مخصوصة به أيضاً.

ثانياً: إنّ استعانة- كهذه- غير منفكّة عن الاستعانة باللَّه، بل هى عين الاستعانة به تعالى، وليس فى نظر الموحّد (الذى يرى أنّ الكون كلّه من فعل اللَّه ومستنداً إليه) مناص من هذا.

وأخيراً نذكّر القارئ الكريم بأنّ مؤلّف المنار حيث إنّه لم يتصوّر للاستعانة بالأرواح إلّاصورة واحدة لذلك اعتبرها ملازمة للشرك فقال:

«ومن هنا تعلمون: إنّ الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أُمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر اللَّه معرضون» (۱).

ويلاحظ عليه: بأنّ الاستعانة بغير اللَّه (كالاستعانة

۱- المنار ۱: ۵۹.

ص: ۵۶

بالعوامل الطبيعية) على نوعين:

إحداهما عين التوحيد، والأُخرى موجبة للشرك، إحداهما مذكّرة باللّه، والأُخرى مبعدة عن اللّه.

إنّ حدّ التوحيد والشرك ليس هو كون الأسباب ظاهرية أو غير ظاهرية وإنّما هو استقلال المعين وعدم استقلاله، وبعبارة أُخرى المقياس: هو الغنى والفقر، هو الأصالة وعدم الأصالة.

إنّ الاستعانة بالعوامل غير المستقلّة المستندة إلى اللّه، التىلا تعمل ولا تؤثر إلّا بإذنه تعالى غير موجبة للغفلة عن اللّه، بل هو خير موجّه، ومذكّر باللّه. إذ معناها: انقطاع كلّ الأسباب وانتهاء كلّ العلل إليه.

ومع هذا كيف يقول صاحب المنار: «أُولئك عن ذكر اللّه معرضون» ولو كان هذا النوع من الاستعانة موجباً لنسيان اللّه والغفلة عنه للزم أن تكون الاستعانة بالأسباب المادية الطبيعية هى أيضاً موجبة للغفلة عنه.

على أنّ الأعجب من ذلك هو شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت الذى نقل- فى هذا المجال- نصّ كلمات عبده دون زيادة ونقصان، وختم المسألة بذلك، وأخذ

ص: ۵۷

بالحصر فی «إِیَّاکَ نَسْتَعِین» غافلًا عن حقیقهٔ الآیهٔ وعن الآیات الأُخری المتعرّضهٔ لمسألهٔ الاستعانهٔ (۱).

اجابهٔ علی سؤال

إذا کانت الاستعانهٔ بالغیر علی النحو الذی بیّناه جائزهٔ فهی تستلزم نداء أولیاء اللّه والاستغاثهٔ بهم فی الشدائد والمکاره، وهی غیر جائزهٔ وذلک لأنّ نداء غیر اللّه فی المصائب والحوائج تشریک الغیر مع اللّه، یقول سبحانه:

«وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً» (الجن/ ۱۸) ویقول تعالی: «وَالَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَایَسْتَطِیعُونَ نَصْرَکُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ» (الأعراف/ ۱۹۷) ویقول عزّ من قائل:

«وَالَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ» (فاطر/ ۱۳). إلی غیر ذلک من الآیات التی تخص الدعاء للّهولا تسیغ دعوهٔ غیره.

وقد طرح هذا السؤال الشیخ الصنعانی حیث قال: وقد سمّی اللّه الدعاء عبادهٔ بقوله: «ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِی» فمن هتف باسم نبیّ أو صالح بشیء

۱- راجع تفسیر شلتوت: ۳۶- ۳۹.

ص: ۵۸

فقد دعا النبی والصالح، والدعاء عبادة بل مخُّها فقد عبد غیر اللّه وصار مشرکاً (۱).

الجواب:

إنّ النقطة الحاسمة فی الموضوع تکمن فی تفسیر الدعاء وهل کل دعاء عبادة وبینهما من النسب الأربع هی التساوی حتی یصح لنا أن نقول کل دعاء عبادة، وکل عبادة دعاء، أو أنّ الدعاء أعمّ من العبادة وأنّ قسماً من الدعاء عبادة وقسماً منه لیس کذلک؟ والکتاب العزیز یوافق الثانی لا الأول، وإلیک التوضیح:

لقد استعمل القرآن لفظ الدعاء فی مواضع عدیدة ولا یصح وضع لفظ العبادة مکانه، یقول سبحانه حاکیاً عن نوح: «رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَیْلًا وَنَهَاراً» (نوح/ ۵) وقال سبحانه حاکیاً عن لسان إبلیس فی خطابه للمذنبین یوم القیامة:

«وَمَا کَانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی» (إبراهیم/ ۲۲) إلی غیرهما من الآیات التی ورد فیها لفظ الدعاء، أفیصح القول بأنّ نوحاً دعا قومه أی عبدهم، أو أنّ الشیطان دعا المذنبین أی عبدهم؟ کل ذلک یحفزنا إلی أن

۱- الصنعانی، تنزیه الاعتقاد کما فی کشف الارتیاب: ۲۸۴.

ص: ۵۹

نقف فی تفسیر الدعاء وقفهٔ تمعّن حتی نمیّز الدعاء. الذی هو عبادهٔ عمّا لیس کذلک.

والإمعان فیما تقدم فی تفسیر العبادهٔ یميّز بین القسمین فلو کان الداعی والمستعین بالغیر معتقداً بألوهیهٔ المستعان ولو ألوهیهٔ صغیرهٔ کان دعاؤه عبادهٔ ولأجل ذلک کان دعاء عبدهٔ الأصنام عبادهٔ لاعتقادهم بألوهیتها، قال سبحانه: «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِی يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ» (هود/ ۱۰۱).

وما ورد من الآیات فی السؤال کلها من هذا القبیل فأنها وردت فی حق المشرکین القائلین بألوهیهٔ أصنامهم وأوثانهم باعتقاد استقلالهم فی التصرف والشفاعهٔ وتفویض الأُمور إلیهم ولو فی بعض الشؤون. ففی هذا المجال یعود کل دعاء عبادهٔ، ویفسر الدعاء فی الآیات الماضیهٔ والتالیهٔ بالعبادهٔ، قال تعالی:

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ» (الأعراف/ ۱۹۴).

«قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا» (الاسراء/ ۵۶). «أُولئک الَّذِينَ يَدعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةُ» (الاسراء/ ۵۷). «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُکَ وَلَا

ص: ۶۰

يَضُرُّكَ» (يونس/ ۱۰۶). «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَايَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ» (فاطر/ ۱۴). وما ورد فى الأثر من أنّ الدعاء مُخّ العبادة، أُريد منه دعاء اللَّه أو دعاء الآلهة لا مطلق الدعاء وإن كان المدعوّ غير إله لا حقيقةً أو اعتقاداً.

وفى روايات أئمة أهل البيت إلماع إلى ذلك، يقول الإمام زين العابدين فى ضمن دعائه: «... فسميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتوعّدت على تركه دخول جهنم داخرين» (۱) وهو يشير فى كلامه هذا إلى قوله سبحانه: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (غافر/ ۶۰).

هذا هو الدعاء المساوى للعبادة وهناك قسم آخر منه لا صلة بينه وبين العبادة وهو فيما إذا دعا شخصاً بما أنه إنسان وعبد من عباد اللَّه غير أنه قادر على إنجاز طلبه باقدار منه تعالى وإذن منه، فليس مثل هذه الدعوة عبادة بل سنة من السنن الإلهية فى الكون، هذا هو ذو القرنين يواجه قوماً مضطهدين يطلبون منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً فعند ذلك يخاطبهم ذو القرنين بقوله: «مَا

۱- الصحيفة السجادية، دعاؤه برقم ۴۵.

ص: ۶۱

مَکَّنِّی فِیهِ ربِّی خَیْرٌ فَأَعِینُونِی بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَیْنَکُمْ وَبَیْنَهُمْ رَدْماً» (الکهف/ ۹۵) وها هو الذی من شیعة موسی یستغیث به، یقول سبحانه: «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِی مِنْ شِیعَتِهِ عَلَی الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ فَوَکَزَهُ مُوسَی فَقَضَی عَلَیْهِ» (القصص/ ۱۵) وهذا هو النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یدعو قومه للذبِّ عن الإسلام فی غزوة أُحد وقد تولوا عنه، قال سبحانه: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَی أَحَدٍ وَالرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْرَاکُمْ» (آل عمران/ ۱۵۳) فهذا النوع من الدعاء قامت علیه الحیاة البشریة، فلیس هو عبادة وإنّما هو توسل بالأسباب، فإن کان السبب قادراً علی إنجاز المطلوب کان الدعاء أمراً عقلائیاً وإلّا یکون لغواً وعبثاً.

ثمّ إنّ القائلین بأنّ دعاء الصالحین عبادة، عند مواجهتهم لهذا القسم من الآیات وما تقتضیه الحیاة الاجتماعیة، یتشبثون بکلّ طحلب حتی ینجیهم من الغرق ویقولون إنّ هذه الآیات تعود علی الأحیاء ولا صلة لها بدعاء الأموات، فکون القسم الأول جائزاً وانّه غیر عبادة؛ لا یلازم جواز القسم الثانی وکونه غیر عبادة.

ولکن عزب عن هؤلاء انّ الحیاة والموت لیسا حدین للتوحید والشرک ولا ملاکین لهما، بل هما حدان لکون

ص: ۶۲

الدعاء مفيداً أو لا، وبتعبير آخر ملاكان للجدوائية وعدمها.

فلو كان الصالح المدعو غير قادر لأجل موته مثلًا تكون الدعوة أمراً غير مفيد لا عبادة له، ومن الغريب أن يكون طلب شيء من الحيِّ نفس التوحيد ومن الميت نفس الشرك.

كل ذلك يوقفنا على أنّ القوم لم يدرسوا ملاكات التوحيد والشرك بل لم يدرسوا الآيات الواردة في النهي عن دعاء غيره، فأخذوا بحرفية الآيات من دون تدبر مع أنّه سبحانه يقول: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَاب» (ص/ ۲۹).

ثمّ انّ الكلام في أنّ دعاء الصالحين بعد انتقالهم إلى رحمة اللّه مفيد أو لا، يتطلب مجالًا آخراً وسوف نستوفي الكلام عنه في رسالة خاصة حول وجود الصلة بيننا وبين أولياء اللّه في ضوء الكتاب والسنة.

جعفر السبحاني

تحريراً في ۲۷ صفر المظفر ۱۴۱۶ ه

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَیْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهـم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهـِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مركز القائمية اصفهان للتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹